مجلة جامعة الملك سعود، م ٢، الآداب (١)، ص ص ٤٣٣ ـ ٤٣٨ (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

(رسالة دكتوراه)

الشرق الأوسط في خيال دزرائيلي الإمبريالي

عزيزة محمد عبدالقدير عنبر

كلية كلير مونت للدراسات العليا، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٨م

The Middle East in Disraeli's Imperial Imagination

Azizah Mohamad A. Anbar

Claremont Graduate School, California, U.S.A., 1988

على الرغم من أن المؤرخين والنقاد يتفقون على أن بنجامين دزرائيلي السياسي والأديب كان مولعًا بشكل خاص بالشرق الأوسط، إلا أننا حتى اليوم نفتقر إلى دراسة مفصلة لهذا الموضوع. هذه الأطروحة هي عبارة عن دراسة تحليلية لنظرة دزرائيلي الأدبية والسياسية نحو الشرق الأوسط، الهدف منها الوصول إلى فهم أعمق للفكرة الإمبريالية لدى هذا السياسي البريطاني. تجمع هذه الدراسة بين منهج النقد الأدبي وأسلوب البحث التاريخي معتمدة على تحليل روايات دزرائيلي الأدبية عن الشرق الأوسط إضافة إلى دراسة خطاباته السياسية وفكرته الاستعمارية التي طبقها خلال فترة رئاسته لوزارة بريطانيا في الفترة ما بين ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠م. وتحاول هذه الأطروحة أن تثبت أنه من خلال نظرته الأدبية والسياسية نحو الشرق الأوسط أضفى بنجامين دزرائيلي على الفكرة الإمبريالية شيئًا من خياله الشخصي.

من المهم أن نشير في هذه الدراسة إلى تراث بنجامين دزرائيلي اليهودي. فعلى الرغم من أن دزرائيلي اعتنق المسيحية في الثالثة عشر من عمره إلا أن تراثه اليهودي يلعب دورًا مهمًّا في توضيح العلاقة التي ربطته بالشرق الأوسط. فقد كان دزرائيلي يحن إلى الشرق كلما ضاق من المجتمع الطبقي البروتستانتي في إنجلترا حيث عانى من ضغوط التمييز الاجتماعي والعرقي. لذا نجد أن أبطال رواياته يتجهون دائمًا إلى الشرق الأوسط طلبًا للإلهام الروحي. الجانب الآخر لنظرة دزرائيلي نحو الشرق يكمن في فكرته الاستعمارية التي تتجلى كلما تطلع إلى الشرق الأوسط لأسباب سياسية أو أدبية. فنراه دائمًا يفصح في رواياته الأدبية وخطبه السياسية عن نزعة استعمارية نحو منطقة الشرق الأوسط مبنية على فهم التركيبة الاجتماعية والتراث الحضاري لشعوب تلك المنطقة، ويروج لفكرة أن الإسلام دين رجعي يفتقر إلى الحقائق الجوهرية الضرورية لتوحيد المسلمين سياسيًّا. هذه الأزدواجية في نظرة الكاتب نحو الشرق الأوسط خلقت نوعًا من التناقض الذي قد يضفي شيئًا من الصعوبة على فهم روايات دزرائيلي. والرحلة التي قام بها دزرائيلي لمنطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط عام ١٨٣٠م كان لها أثرها في تعجيل نضجه السياسي. ويبدو هذا واضحًا من خلال الرسائل التي أرسلها لأفراد عائلته خلال وجوده هناك، وأيضًا نجد أنه خلال هذه الرحلة تتبلور عنده الرغبة أو الطموح الشخصي للوصول إلى مراكز القوة والسيادة، ويبدو هذا واضحًا في الرومانسيات الشرقية (السيريذاتية) والتي كتبها ما بين ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣م مباشرة بعد عودته من رحلته.

ففي «كونتاريني فلمنج» (١٨٣٢م) *Contarini Fleming* أول الرومانسيات الشرقية، عبر الكاتب عن رغبة بطل الرواية (السيريذاتي) في الوصول إلى القوة عن طريق ممارسة السياسة، ثم صور دزرائيلي هذه الرغبة في «رواية الروى العجيبة» (١٨٣٣م) *The Wonderous Tale of Alroy* «ونهوض الإسكندر (١٨٣٣م) *The Rise of Iskander*. في الرواية الأولى نجد البطل (السيريذاتي) أمير يهودي، وفي الثانية أمير مسيحي يوناني وكلاهما يسعى إلى تحقيق إمبراطورية وأعمال بطولية في الشرق الأوسط ضد المسلمين الأتراك. كلتا الشخصيتان تعكسان نظرة دزرائيلي المزدوجة نحو نفسه كيهودي ومسيحي. أما الأعمال البطولية التي يقوم بها الأميران، اليهودي والمسيحي، فلا تعدو أن تكون تجسيدًا لأحلام

دزرائيلي في السيطرة وتأسيس إمبراطورية في الشرق، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن تحقيق هذه الإمبراطورية يعتمد في كلتي الروايتين على معرفة البطل الروائي لعادات عدوه المسلم وتقاليده ويعتمد دزرائيلي في وصفه للمجتمعات المسلمة في هاتين الروايتين «الروى» و «الإسكندر» على ملاحظاته التي سجلها عن هذه الشعوب خلال رحلته إلى الشرق. في هذه الفترة بدأت طموحات دزرائيلي السياسية تأخذ شكلاً عمليًا، فقد قام بترشيح نفسه في الانتخابات مؤملاً في الفوز بعضوية حزب المحافظين في مجلس العموم. وفي هذا الوقت اتخذ دزرائيلي من فكرة الإمبريالية البريطانية شعارًا ينادي به في خطبه الانتخابية.

وفي الفترة من ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧م عاد دزرائيلي مرة أخرى لكتابة الرواية، ففي ثلاثيته السياسية: «كونينجزبي أو الجيل الجديد» *Coningsby: or the New Generation* ، و «سيبل أو الأمتان» *Sybil: or The Two Nations* ، «وتانكرو أو الصليبية الجديدة» *Tancreo: or The New Crusade* ، عالج دزرائيلي التغيرات السياسية والاقتصادية التي كانت إنجلترا تمر بها في هذه الفترة. لقد استخدام القصة كوسيلة ناقش من خلالها الدور الذي لعبته الأحزاب السياسية في إنجلترا في الفترة التي تبعت التعديل الانتخابي الذي أجراه البرلمان البريطاني عام ١٨٣٢م. وانتقد دزرائيلي في ثلاثيته هذه الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في إنجلترا لفشلها في المحافظة على دورها التقليدي القيادي في البلد. فقد رأى أن تلك الطبقة قد وسعت الفجوة بينها وبين الطبقة الكادحة، وأهملت واجباتها الروحية والاقتصادية تجاه الشعب. وفي «تانكرو» (١٨٤٧م) طرح دزرائيلي حلوله لمشكلات إنجلترا الاقتصادية، ففي الجزء الأول من الرواية يعالج بالدرجة الأولى الأزمة الاجتماعية والدينية في إنجلترا وينادي بالعودة لمبادىء الديانة المسيحية القديمة التي حكمت إنجلترا في الماضي. ويبين أنه من الممكن تحقيق هذا إذا عادت الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية للقيام بواجباتها الروحية ووثقت علاقاتها بالكنيسة اليهودية المسيحية كما كان عليه الحال فيَ العصور الوسطى. وفي الجزء الثاني ينتقد دزرائيلي بشكل غير مباشر الطبقة الأرستقراطية لانشغالها بجمع المادة عن أداء الدور المتوقع منها تجاه توثيق حركة التوسع الاستعمارية في بريطانيا، وينادي بأن لا تقوم الروابط بين الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية والمستعمرات البريطانية (لكي تكون أكثر فعالية) على أسس مادية نفعية بحتة. فبينما يفصح دزرائيلي في رواياته عن الفرص

الاقتصادية الموجودة لدى إنجلترا في الشرق الأوسط يرى أن العلاقة بين إنجلترا ومستعمراتها لكي تكـون أكثر فعالية يجب أن تستتر تحت غطاء العلاقات الروحية وأن هذا بالإمكان تطبيقـه في الشرق الأوسط أكثـر من أي مكـان آخـر. إن أكثـر ما تتجلى نظرة دزرائيلي الاستعمارية نحو الشرق الأوسط في تانكرو في تعليقه على التغيرات التي طرأت على بلاد الشام في العقد الرابع من القرن التاسع عشر والدور الذي لعبته بريطانيا في هذا المجال. فلقد حلل دزرائيلي في هذه الرواية سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط وأكد على أن سيادة بريطانيا في هذه المنطقة تعتمد اعتمادًا كليًّا على سياسة خارجية فعالة. فنظرًا لأن بريطانيا في تلك الفترة لم تكن قد فرضت بعد سيادتها الاستعمارية على منطقة الشرق الأوسط فقد رأى دزرائيلي أهمية تأكيد تفوق بريطانيا العسكري والمعنوي في هذه المناطق إزاء منافسة فرنسا لها وقمع الحركات الثورية المحلية المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية وإقامة حكومة سوريا العظمى.

كانت «تانكرو» هي آخر الروايات السياسية التي كتبها دزرائيلي للمناداة بضرورة توسع بريطانيا في الشرق في سبيل المحافظة على توازنها السياسي والاقتصادي، وفيما بعد وعـلى منصـة الانتخابات ربط دزرائيلي بشكل متزايد في خطاباته السياسية بين مصلحة الطبقة الأرستقراطية والطبقة العاملة وأكد على أن التعاون المشترك بين هاتين الطبقتين من شأنه أن يُثبّت أقدام بريطانيا في مستعمراتها ويخفف من حدة التوتر السياسي داخل بريطانيا. ويعتبر دزرائيلي في نظرته هذه سابقًا لغيره من سياسيي زمانه، حيث إنه كان يرى في تعزيز مكانة بريطانيا في الشرق الأوسط والبحر المتوسط صرفًا للطبقة العاملة في إنجلترا عن أية حركـات ثورية من شأنها زعـزعة مكانة الطبقة الأرستقراطية وبالتالي الاستقرار السياسي لبريطانيا. وتتضح هذه النظرة أكثر عندما نطلع على خطابات دزرائيلي السياسية في مجلس العموم في هذه الفترة، حيث دعا الحكومة البريطانية إلى تلافي أية اضطرابات سياسية داخل إنجلترا عن طريق نهج سياسة استعمارية حكيمة من شأنها إيجاد أسواق للبضائع الإنجليزية في منطقة الشرق الأوسط والهند وشرق آسيا. وعندما أصبح دزرائيلي رئيسًا لوزراء بريطانيا عام ١٨٧٤م، استمـد برنـامجـه السياسي من فلسفتـه التي نادى بها في رواياته وخطاباته السياسية وعمل باستمرار على تركيز نظرة الأمة على النهج الإمبريالي. واتبع دزرائيلي سياسة

مزدوجة من شأنها تأكيد سيادة بريطانيا في العالم كقوة استعمارية وترسيخ دور الكنيسة والطبقة الأرستقراطية في بريطانيا. وفي محاولته تطبيق هذه السياسة صبغ دزرائيلي الفكرة الإمبريالية في إنجلترا برؤيته الخاصة والتي تطلعت إلى القوة والغلبة في الشرق الأوسط، فنرى أن سياسته نحو الشرق الأوسط مثل (عمله على شراء أسهم قناة السويس لصالح بريطانيا إزاء معارضة برلمانية شديدة، وضمه جزيرة قبرص كمستعمرة بريطانية) رسخت مكانة بريطانيا في منطقة الشرق الأوسط والبحر المتوسط. وقد كانت سياسة حكومته الخارجية مبنية أيضًا على إيمانه بضرورة احتلال بريطانيا لسوريا أو مصر في أقرب فرصة. وفي عام ١٨٨٢م بعد وفاة دزرائيلي بسنة واحدة غزت الجيوش البريطانية مصر وتحققت نظرة دزرائيلي.